مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية ISSN : 2353-046
المجلد5 ، العدد11، (سبتمبر 2017) EISSN : 2600-6421

صورة اليهودي في لزوميات أبي العلاء المعري(363هـ- 449هـ) مقاربة موضوعاتية

الدكتورة: حفصة جعيط
كلية اللغة العربية واللغات الشرقية
جامعة أبو القاسم سعد الله - الجزائر2

مستخلص البحث:

تقوم هذه الدراسة على استقصاء ما ورد في شعر أبي العلاء في لزومياته من تصوير خصّ به الشخصية اليهودية احتلّ مواضع كثيرة استرعت انتباهنا، فآثرنا قراءتها وفق آليات المنهج الموضوعاتي الذي فرض نفسه في هذه المقاربة دون أن نخوض في تشعباته لكونه شتاتا من التأثيرات وله علاقة بمناهج نقدية أخرى.

اعتمدنا تواتر الصورة لتحديد الموضوع المهيمن لا العائلة اللغوية مستفيدين من جهود أقطاب في هذا الحقل أمثال جون بيار ريشار. وغايتنا البحث في تمهظرات هذا التصوير عند الشاعر وخلفياته الدينية والفلسفية والاجتماعية وبلاغته.

الكلمات المفتاحية: لزوميات- الصورة- مكونات الصورة العلائية- الشخصية اليهودية-

ABSTRACT :

This article investigates in the Jewish personality in Abu E'Ala El Maari "Louzoumiyat" ' s . We based on the thematic approach and adopted frequency of the image not the dominant language family to know the factors that contributed in these perceptions.

Words key : LOUZOUMIYAT ABU -EL ALA – IMAGE- IMAGE COMPONENTS- JEWISH PERSONALITY

تمهيد

أبو العلاء بين الإطراء والتحامل

كثيرا ما تناولت الأقلام فنّ أبي العلاء المعري وآراءه الفلسفية، وأفاضت في بسط عوالم شعره الفكرية واللغوية ومعالم الجمال فيها، فمن الدارسين من انتصر له ورفع فنّه إلى أسمى المراتب، ومنهم من رشقه بتهم زيغ العقيدة والتمرّد على الأديان، سالكا أسلوب المغالطة ليورِّطه في خصومات، معتقدا أنّه سلاح فتاك للإجهاز على فنه، مجافيا بذلك الروح النقدية. وقلما تخطى النقاد هذا الحقل وإصار الاهتمام بالصورة ورونق السبك إلى فلسفة الشاعر المتكاملة في الوجود التي لم تنفصل عن الأنا في تفاعلها مع الذات الجمعية. ظلّ الشاعر مشدودا إلى واقعه المأزوم، وحوّل الفنّ إلى وعاء يستوعب تأملات تخطّى بها جدل الفلاسفة والمتكلمين الذي اتّخذ الطابع الفكري المحض إلى ما يعرّي تحديّات زمن لم يحتمل مشاكساته، ويُوجّه إلى هدم وعي قاد الأمة العربية الإسلامية إلى الارتكاس في التقهقر والانحدار. حرّك هذا الإحساس العميق بولوج الحضارة خريفَ العمر احتجاجَ الشاعر، ولكن كثيرا من الباحثين لم يتجشموا عناء التنقيب عن حيثيات هذا الاحتجاج الذي طال طوائف المجتمع، وفي تقديرنا أن الذائقة النقدية العربية ألفت إدراج الأدب في مربع الجمال وحده وأبعدته من الدراسات الاجتماعية والفكرية التي تتصدى لمسائل فلسفات الحضارات، متحدية الذات الشاعرية التي تمتلك من القدرة ما ينهض بأعباء الجمال والاجتماع والسياسية وقضايا الإنسان.

1-خفايا هوس أبي العلاء وتأثيره في الصورة

1.1 وعي الشاعر بأزمة الحضارة الإسلامية

أرّق أبا العلاء واقع الأمة فجاب ببصيرته الآفاق مُرجِعا النظر في الأخطار التي تُقوِّض أركانها وهذا ما نطقت به لزومياته. إذا كان الناقد «ينطلق من النص ويعود إليه»[1] فإن تكنيس قصائده يفضي إلى تواتر صورة اليهودي في اللزوميات بينما يندر ذلك في سقط الزند والدرعيات، وبقية آثاره النثرية مثل رسالة الغفران والصاهل والشاحج ورسالة الملائكة وغيرها. ترددت صورة اليهودي في أكثر من أربع وثلاثين لزومية(34)، وتوزعت دون ضابط فوردت ضمن تأملاته الوجودية، وتوجيهه الاجتماعي، وإلهياته، متمردة على كلّ

[1] - عبد الكريم حسن. المنهج الموضوع، ط2، دار شراع للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق 1996م. ص31.

سيطرة. واتسعت خزائن فكره للديانات الثلاث، الإسلام والمسيحية واليهودية، فأقام المقارنات بينها ليثبت المنسوخ منها، ولم يفرد لعقيدة اليهود إلا لزومية واحدة في شكل مقطعة[1] ولكنّه ظلّ في رحلته هذه يفرّق بين اليهود وبني إسرائيل مستندا إلى القرآن الكريم(**أَمْ تَقُولُونَ إِنّ إبراهيمَ وإِسْماعيلَ وإسحاقَ ويَعْقُوبَ والأَسْبَاطَ كانوا يهُوداً أو نصارى، قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أم اللهُ)(البقرة:140).** يسلّط أبو العلاء الضوء على العقيدة دون الجنس، وسار نقده في اتجاه حميمي مع الصورة الأصل. والصورة حسب النقاد المعاصرين هي طريقة في التعبير وليست مجرّد تسجيل للواقع أو نسخ صورة منه بل «عملية ضبط للوجود الظاهر والوجود الباطن وجعل هذه العوالم تدرك بالحس والعقل والرؤيا»[2].

2.1 سرّ توزيع أبي العلاء الصورة على الطور الثاني

لا ينكشف السرّ إلا بالتنقيب عمّا يمكن أن يبدّد الحواجز الصورية بين اللزوميات التي اتسعت لحملته على ممثلي الديانة اليهودية. إذا استندنا إلى آراء أقطاب الفكر الباحثين في أسرار العملية الإبداعية يتبين لنا أنّ هذا التوزيع هو أشبه بالوحدة العضوية التي تجمع جزئيات الصورة ولا يُعدّ عامل الزمن حاجزا أمام النفس والفكر ممّا يكفُل للصورة الاستمرار في النمو والوفاء للمبدع بما يُخفّف من حالة الانفعال الحاد الذي ينتاب كل ذات مبدعة في تفاعلها مع العالم الخارجي، فقد ذهب باشلار إلى أن الوقوف على الأسباب المباشرة لولادة الصورة أمر عسير: «نستطيع بالطبع أن نتذكر وسائل تحليل نفسية تحدد شخصية الشاعر، فنجد مجموعة من الضغوط– وقبل كل شيء القمع-ولكن الفعل الشعري ذاته، الصورة المفاجئة، واشتغال الوجود في الخيال، لا نجد تفسيرا لها بوسائل التحليل النفسي»[3]. وهذا يعني أن المبدع تستفزّه مواقف يتفاعل معها ولكنّه لا يفرغ كل طاقته الإبداعية في العمل الواحد لينتقل إلى موقف آخر مبتور الصلة بالسابق، فالإبداع عملية مستمرة متصلة بالنفس الإنسانية، وهذه الأخيرة

---

[1] - أبو العلاء المعري. اللزوميات. شرح وتح الأساتذة: منير المدني، زينب القوصي، وفاء الأعصر، سيدة حامد. إشراف ومراجعة حسين نصار. الهيئة المصرية للكتاب، مصر 1992م. ج1/ ص 452.

[2] -غاستون باشلار. جماليات المكان. تر غالب هلسا. 3ط ،المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع 1987م. ص18.

[4]- ساسين سيمون عساف. الصورة ونماذجها في شعر أبي نواس، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر- لبنان 1972م. ص20.

غير قابلة للتجزئة وذهب الناقد جون بول ويبرWeber Jean- paul إلى وضع الصورة في درجة واحدة مع الخلية الأولى التي يتكون منها جسم الإنسان «إذا كان إرجاع تصرفات الكائن الحي وبنيته إلى خلية واحدة لا يعد امرأ غريبا، فلم لا يصبح رد أعمال شاعر إلى موضوعاتية واحدة امرأ واضحا وضوحا كافيا»[1].

3.1 تردّد صورة اليهود في اللزوميات

هذا سر آخر لابد من الاجتهاد في البحث لإزالة الحجب عنه، فقد مرت حياة أبي العلاء بطورين، الأول مثّل الانفتاح على عوالم الناس بمتناقضاتها، وأسفارا بين بقاع الشام والعراق تكون قد هيأت له اختبار الطوائف واستجلاء غوامض أسرارها، فأصلاه هذا الطور نيران طباع اليهود ومفاهيمهم التي اصطدمت بعالمه .

أمّا الطور الثاني فكان ثمرة العوامل السابقة التي أكربته وزجّت به في اختيار الانسحاب من صخب الحياة واجتناب ضجيج المنافقين والمتزلفين، فلاذ بمحبسه بالمعرة ليتجرد للنظر في الوجود دون أن يضرب صفحا عن العالم الخارجي، ومرّ في هذا الطور برفض الشعر، أما الدرعيات والسقط فألفهما قبل هذه المرحلة ولم ينظم من السقط في توحده إلا القصيدتين الثالثة والسبعين والرابعة والسبعين(73،74)[2]، ويسمى هذا التمرد على الذات المبدعة في اصطلاح النقاد اغترابا إبداعيا، توازى ودخول الذات في ثنائية ضدية مع العالم الخارجي، ودخل بذلك طور استغلال طاقات العقل في مطاردة مشاكسات عالمه.

توحّد الشاعر مما هيّأ له احتلال ذروة الشموخ في تأملاته الوجودية، وعن هذا التفكير الفياض ورد في دائرة المعارف الإسلامية: «أن مؤلفات الطور الثاني من حياته هي التي ظهرت فيها موهبته الفريدة»[3].

ويقدم الشيخ ابن سينا ما يفسر ترقي فكر أبي العلاء في توحده، فيذهب إلى أن الانسلاخ من الزمن العام يهيئ للفرد إدراك وجوده الخاص: «لو نحن افترضنا أنفسنا في

[1] -Domaines thematiques» Editions Gallimard , 1963 , p.29.

[2] - ينظر: السعيد السيد عبادة. عن سقط الزند. مجلة التراث العربي. العدد 205. اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2007م. ص19.

[3] - دائرة المعارف الإسلامية. يصدرها بالعربية أحمد الشنتناوي وإبراهيم زكي خورشيد. مراجعة محمد مهدي علام. المجلد الأول. ص379.

الخلاء التام وفي وضع لا تتصادم فيه أعضاؤنا الجسمية، ولا نرى شيئا، ولا نسمع شيئا فإنّنا في ذلك الوضع أشد ما نكون وعيا لوجودنا وإثباتا لأنيتنا»[1].

تعزز وعيُهُ التسخيصي بالذات العربية الإسلامية في طور الانسلاخ من عالم مشحون بالصراع بين سلطة الآخرين وسلطة الذات، فدفعته رهبة الواقع إلى الغوص في كل يمُتّ بصلة إلى أزمة الحضارة الإسلامية، وهذا ما نفترضه سببا في تطوافه الفكري في مجالات الحياة والاجتماع.

ألحت عليه صورة اليهودي، ولهذا الإلحاح قيمته في تعزيز الصورة المهيمنة حيث يؤكده عبد الكريم حسن قائلا: «إنّ قيمة أيّ موضوع إذن تتحدّد من خلال إلحاحه وقدرته على التمفصل»[2]. لا يوفّر التكرار دائما تطابق الدلالات في الوحدات النصية إلاّ أنّه يُوجّه إلى شيء عالق بنفس الشاعر وهو ما يسميه جون بيار ريشار هوسا: «التردد هنا كما في غيره يشير إلى الهوس»[3].

لا تبقى الطاقة الإبداعية على مستوى الكمون إذ تتفجر فتنتقل من القوة إلى الفعل، من الهوس إلى تجسيده بصيغ في مستوى بركان الأحاسيس. ولا يغفل النقاد المعاصرون عامل اللاشعور في العملية الإبداعية، فقد تصعد مضامين قابعة فيه ليتضامن الشعور واللاشعور في صياغة ما يجتاح الذات المبدعة، ولا يُقصد من جوهر محتوى الوعي، اللاشعور، المفهوم الفريودي للمكبوتات المتصلة بالعقد النفسية، حيث عزى فرويد كل المكبوتات في اللاشعور إلى طور الطفولة الأولى التي تمثلها الخمس سنوات الأولى[4]، وعلى ضوء هذه النظرية فُسّرت كثير من الأعمال الإبداعية. إنّنا نأبى أن نقحم فن أبي العلاء المعري في متاهات العقد النفسية التي قد تصرفنا من الغوص في فكره إلى مجال ضبط العقد وليست من غاياتنا في هذه الرحلة.

تحدّت صورة الاحتجاج على ممثلي الديانة اليهودية، في اللزوميات، نطاق الكتمان ولم يكن الشاعر يملك لها دفعا، ولا يمكن تفسير هذه الحالة من الزاوية النفسية إلا بغلواء ثورة عليهم قابعة في اللاشعور، وأضاء بيار ريشار هذه الزاوية في الفن قائلا: «من المسلم

---

[1] - أبو علي بن سينا. الإشارات والتنبيهات. شرح الدين الطوسي. تح سليمان دنيا. ط2 ، دار المعارف المصرية 1968. القسم الرابع ، ص305.

[2] - عبد الكريم حسن. المنهج الموضوعي. ص52.

[3] - سعيد علوش. النقد الموضوعاتي. مطبعة بابل . المغرب 1989م. ص131.

[4] - سيمونجد فرويد. تفسير الأحلام. تر مصطفى صفوان. دار المعارف المصرية 1969م. ص 96.

به اليوم أن عناصر العمل الأدبي تنطوي على درجة كبيرة من الحياة اللاشعورية، وأحيانا اللاشعور أهم بكثير من غيره»[1]، وهذا في تصورنا التفسير المنطقي لحملة أبي العلاء على الفكر اليهودي التي تطفو في أضعاف لزومياته، ومع أنّنا لا نذهب مذهب جون بول ويبر حين يعزو كلّ إبداع فني إلى حادث مميز في طفولة الأديب: «كل آفاق العمل الأدبي، في اعتقادنا مرجعها منبع واحد، هو الموضوع الذي هو أثر واع أو غير واع لحادث مميز يكون وراء صدمة نفسية أو تأثير عميق في طفولة الفنان...هذا الموضوع يتواجد في أعمال كثيرة للفنان»[2].

إلاّ أننا نستند جزئيا إلى فرضيتين، إمّا حوادث أو حادث من اليهود مضى زمنه ولكنّه ترك أثرا عميقا في نفس الشاعر وقبع في ذاكرة الشاعر وتحوّل إلى ندوب تعسّر على الزمن الإتيان عليها، أو أراد أن يتحدى مأساة الواقع وقد فقد العربي سلطانه بين أهل الملل والنحل فترقى إلى التأملات الموجهة إلى إعادة صياغة وعي المجابهة وتخطي حالة الاكتئاب والاستلام إلى السقوط التي شكلت هاجسه، وقد ندى من فنه ضجر من اليهود يُوجّه إلى الفرضيتين:

تِلْكَ اليَهُودُ فَهَلْ من هَائِدٍ لَهُمُ والصَّابِئُون، وكُلُّ جَاهِلٍ صَابِ[3]

لَمْ يُثْبِتُوا بِقِيَاسٍ أَصْلَ دِينِهُمُ فَيَحْكُمُوا بين رُفَّاضٍ ونُصَّاب

وعضد المعنى في «زجر النابح»* بالجهر باغتياظه عليهم:" «بعض اليهود والنصارى يدخلون أنفسهم بين المسلمين، فمنهم من يغلب رأي السنة ومنهم من ينتصر للشيعة، وإنما يريدون بذلك التقرب إلى رؤساء المسلمين»[4].

وطفقت أشعاره بوصف مستفيض لليهود ينمّ عما يحمل بين جناحيه من أسى تتوارى فيه الذات الفردية لتذوب في الذات الجمعية، فليس في النفس ما يعزى النفس وأمور الأمة شتى، وعصبها تتهاوى، ولم يستطع أن يكتم ألمه وقد تداعت الأمم على المسلمين:

---

[1] - فؤاد أبو منصور. النقد البنيوي الحديث بين لبنان وأوربا(وضمن الكتاب حوار بيار ريشار). ط1. دار الجيل. بيروت 1985م. ص195.

[2] - -Jean-Paul Weber «Domaines Thématiques » ; éditons Gallimard 1963, p.23.

[3] - أبو العلاء المعري. اللزوميات. ج1/ ل130 / ب3،5 / ص181.

* زجر النابح كتيب شرح فيه ما أبهم على الناس من شعره.

[4] - أبو العلاء المعري. زجر النابح.(مقتطفات). جمع وتح أمجد الطرابلسي. ط 2. مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق 1982م. ص 26، 27.

لَعَمْرِي لَقَدْ أَمِنَ العَائِذُون وعونشَ ذو بَعْضَةٍ فاعْتنشْ[1]
فَيَا قِسُّ وقِعْ بِرِزْقِ الخَطيبِ وانْظُرْ بِمسْجِدِنا يَا مُنَشْ

ترعرع الشاعر في بيئة دينية إذ كان للتنوخيين شرف تولي القضاء والفقه لمدة قرنين ، واغترف من القرآن الكريم الذي كثيرا ما عرّى مكائد اليهود (البقرة:46-93)، ولكن الراجح أن سرّا يستتر خلف هذا التصوير الذي لا ينحصر في الأنماط البلاغية، ويتعداها إلى الصور الذهنية، فالمصادر شحيحة فيما يتصل بذكر صلات الشاعر بهذه الطائفة الدينية، ولكن الثابت أنّ الحضارة الإسلامية مثلت دائرة منفتحة لثقافات وعقائد الشعوب التي امتزجت بالمسلمين، ولا يستبعد أنّه رأى من اليهود ما شحن صدره عليهم خاصة أنه ذو بصيرة حادة يطوّفها في كل الأرجاء.

أرسل القول في اليهود ولا نرجح أن يكون موقفه منهم حصيلة جولته في الحقول الفكرية والدينية وحدها خاصة ما ورد في الكتب الإسلامية ككتب المتكلمين الأشعرية، والكتب المترجمة كما أشار إليه محمد الجندي: «والذي أظنّه بل أعتقده هو أنّ أبا العلاء اطّلع على مذاهب النصارى واليهود والمجوس وغيرهم، من كتب الشريعة الإسلامية لا سيما كتب الكلام والعقائد ككتب الأشعرية، لأنّ فيها كثيرا من المسائل التي تبسط عقائد غير المسلمين...»[2].

في اعتقادنا أن السبب الذي حدا بالشاعر إلى حافة اليأس هو وعيه بما وصلت إليه أحوال الأمة من الوهن وانقباض السلطان، ففزع من تلك الغفلة وأنفذ رسائل خرجت من التشفير إلى المجاهرة بالقول مادام الأمر يتعلق بعواصف سوف تخلق ما تبقى من سلطان الدولة الإسلامية. ورد في كتب التاريخ، وعلى ألسنة الإخباريين ما يدحض فرضية بناء الشاعر هذه الصورة السلبية عن اليهود من منبع واحد وهو مما اغترفه من الكتب، كما أشار إلى ذلك محمد الجندي، فقد أثبت آدم متز تنفُّذ أهل الذمم بين المسلمين وتنظيم أنفسهم بحيث «كان معظم الصيارفة والجهابذة في الشام يهودا مثلا، على حين كان أكثر الأطباء والكتبة نصارى»[3]. ومن اليهود من وُلي على المسلمين في عقر ديارهم،

[1] - أبو العلاء، مصدر سابق: طبعة 1994. ج4/ ل 1525/ ب6،7/ ص117.

[2] - محمد سليم الجندي. الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره. أشرف على طبعه عبد الهادي هاشم. ط2(مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق). دار صادر بيروت 1992م. ج3/ ص1254.

[3] - آدم متز. تاريخ الحضارة الإسلامية. دار صادر بيروت ، د.ت. ص52.

وينقل صاحب الصبح المنبي صورة حية من هذا الوهن الذي أصاب العرب: «وكان بدمشق يهودي من أهل تدمر يعرف بابن ملك من قبل كافور ملك مصر»[1].

2. مكوّنات الصورة

1.2 التناص مع النص الديني والتراث

بنى المعري الصورة على ما جادت به كتب التراث الديني والقرآن وأمده به الواقع، فقد أثارت أخلاق اليهود حفيظته وحركت هواجسه لاتكائها على السند الديني المزيف[2](**ضَرَبَتْ عليهم الذلّةُ أَيْنما ثُقِفُوا إلاّ بحبل من الله وحبل من الناسِ، وباءوا بغضب من الله، وضُرِبتْ عليهم المسكنةُ، ذلك بأنّهم يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياءَ بغير حقّ،ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون)(آل عمران: 112)**. وبما أنّ النفس قائدة الجسد فإن هذه العقيدة اليهودية تُوجّه الشخصية إلى المين ليُعبد طريق المآرب، ويُسند الدور إلى نخبة اليهود وهم الأحبار والعلماء[3]، فكيف يهتدي الأتباع والصفوة قد اعتراها مرض الكذب وتحول إلى شريعة في حياتهم.

تبين له أنّ عالمهم يناقض طبيعة النفس البشرية الطيبة، فقد استباحوا الكذب وتدرجوا في التردي الإنساني من القول إلى الفعل فأصبحوا يناهضون من يسعى إلى صدّ زيفهم، ولعله استشعر خطرهم فخرج من المعنى المبطن إلى المجابهة المباشرة:

فَلاَ تَأْمَنُوا الشَّرَ من صَاحِبٍ وإِنْ كانَ خَالاً لَكُمْ وابْنَ عَمْ[4]
أَتَـوْكَ بِإِقْبَالِهِـمْ والحُسَـامُ فَـشَدَّ بِهِ زَاعِمٌ ما زَعَمْ
تَـلَـوْا بـاطلاً وجَلَوا صَارِمًا وقَالُوا: صَدَقْنَا . فَقُلْتُمْ نَعَمْ

لم يتجن الشاعر على عقيدتهم هذه بدليل ما ورد في التوراة نفسها من أكاذيب، فقد جاء في سفر الخروج: «ولما رأى الشعب أن موسى طالت إقامته..اجتمعوا حول هارون...هذه آلهتك يا إسرائيل التي أخرجت من ديار مصر...قال الربّ لموسى" لقد تأملت في هذا الشعب وإذا هو شعب عنيد متصلب القلب"، فدعا موسى فتراءف الربّ ولم يوقع

---

[1]- الشيخ يوسف البديعي. الصبح المنبي عن حيثية المتنبي. تح مصطفى السقا ومحمد شتا وعبده زيادة عبده. ط2 دار المعارف المصرية 1977. ص110.(سلسلة ذخائر العرب).

[2] ،[21] - اللزوميات: ج2/ ل 543 / ب2 / ص103. ل685 / ب3- 5/ ص229.

22- المصدر نفسه: ج3 / ل1157 / ب4-7 / ص197.

بشعبه العقاب الذي توعد به»[1]. فلا شيء من هذا يطابق الحقيقة، خاصة قضية الشعب المختار، وغفران الله لهم كفرهم بنعمته.

ولكن أين يكمن خطرزيفهم؟

يحدد أبو العلاء أطوارا مرّ بها زيفهم، فمن مغالطة النفس، إلى الكذب على الأنبياء والخالق، ثم بثّ الكذب للناس، حتى يبسط ظلاله على كل من ينضوي تحت سلطانهم فيصيب عقله الفتور ويصبح أسير مكرهم وكأنّه يرتّد إلى مرحلة الطفولة الأولى، فهؤلاء الأحبار يهيئون العقول لتلقي الخطابات مقفلة، يعضد الصورة بصورة الطفل الذي يتلقى أولى دروس الحياة فترسخ في مخيلته:

وكُلُّ ما عنْدَهُمْ دَعَاوٍ حَتّى يُقُيمُوا به الشُّهُودَا[2]

غَدَوْا وأَشْيَاخُهُمْ لِجَهْلِ كَوِلْدَةٍ أَوْطَنُوا المُهُودَا

إنّ مسخهم العقيدة الصحيحة التي جاءهم بها أنبياؤهم وجّههم إلى الاصطدام بعالم الحق ممّا جعل هذه القيم السلبية تحاول العصف بكلّ ما يمكن أن يسدّ فجاج الشرّ فطالت رموز الفضائل والجمال، وبذلك زيّنت لهم نفوسهم العدوان والاعتداء، فلم ينج منهم الأنبياء وقد عُصِموا من رجس الشيطان، ولم يستطع الزمن مداواة شرورهم، فامتدّ إلى سيد البشرية محمّد صلى الله عليه وسلم:

والمَرْءُ يَغْشَاهُ الأَذَى من حَبْثُ لاَ يَخْشَاهُ، فأَعْجَبْ من صُرُوفِ الأَدْهُرِ[3]

ومحَمّدٌ وهو المُنَبَّأُ يَشْتَكِي لِمكانِ أكلَتِهِ انْقِطَاعِ الأَبْهَرِ

وهنا يقع التناص مع النصوص التراثية والآثار الدينية ويختار الشاعر التعريض بعنفهم من خلال المرأة التي دسّت السمّ للرسول مدفوعة بضغائن توارثتها من قومها، وما هي إلاّ ثمرة عنف سرى في دمائهم رسخته فيهم كتبهم المشوهة، وهذا ما جعله لا يأمن شرهم على المسلمين.

يدرس الشاعر ظاهرة العدوانية التي تمكنت من نفوس اليهود وكأنّه عالم اجتماع، وفي الدراسات الاجتماعية الحديثة ما يؤيد رأيه فيذهب صابر طعيمة أنّ هذه العدوانية ثقافة بنيت عليها مخيلة اليهود: «أما مجالات الخلق والاجتماع، فهي متاهات الشرّ والأذى والحقد الدفين على الناس جميعا غير أنّ فيها أخلاقا لكنها محدودة...ثمّ إنّ اليهود

[1] - التفسير التطبيقي للكتاب المقدس. تعريب وجمع شركة ماسترو ميديا. القاهرة 1997. الخروج 32، ص194.

[2] - المصدر السابق: ج1/ ل 401/ ب4،2 / ص 425.

[3] -المصدر نفسه ج4/ ل 1551/ ب 16،15 / ص 151.

يفسرونها جميعا لهم وحدهم يتعاملون بها دون سائر الناس. أما أخلاقهم مع الأغيار فهي على نقيضها كما تشير إليه التوراة»[1].

وتقوم التوراة نفسها دليلا على أنّ أبا العلاء المعري حجة ثبت وضليع في أخبار اليهود، وتحمل ما يبرر توجسه من عدوانيتهم، فقد ورد في سفر التكوين أنّ الله اصطفى إسحق وفضله على إسماعيل: «إنّ عهدي أبرمه مع إسحق الذي تنجبه لك سارة»[2].

أصبحت العدوانية مجال مباهاة في الفكر اليهودي، وأداة لصياغة الشخصية اليهودية فقد تبجح الحاخام ألعيزار متفاخرا بسلطان السيف والقوس وعدّهما زينة الإنسان[3] .

يعزّز المعري أجزاء الصورة بضلع آخر حتى ترفع كثيرا من الأسرار عن الشخصية اليهودية، فيعري توراتهم بجراءة من القداسة بأسلوب يعتمد فيه المفارقات متكئا على حجة قوية مفادها أنّ كل كتاب تلحقه أهواء البشر تزول قداسته:

يَا آلَ يَعْقُوبَ ما تَوْرَاتُكُمْ نَبَأٌ من وَرْيِ زَنْدٍ ولكنْ وَرْيُ أَكْباد
إِنْ كَانَ لم يَبْدُ لِلأَغْمَارِ سِرُّكُمُ فَإِنَّهُ لِيَ فِي إِكْنَانهِ بَادِ
لَقَدْ أَكَلْتُمْ بِأَمْرٍ كُلُّهُ كَذِبٌ على تَقَادُمِ أَزْمانٍ وآبادِ[4]

ويستند في هذه الحجة ’لى قوله تعالى(**وقالوا لنْ يدخُلَ الجنَّةَ إلاَّ منْ كان هودًا أوْ نصارى تلك أمانيهم، قلْ هاتوا برهانَكُمْ إنْ كنتم صادقين. بلى من أسْلمَ وجْهَهُ للهِ وهو مُحسنٌ فلهُ أجرُه عند ربِّه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)(البقرة : 112).**

تتعزّز الحجة بنفي اليقين عن محتوى التوراة باستخدام أسلوب النفي "ما توراتكم نبأ" ليصل بالمتلقي إلى وهنها باعتبار أنّ النبأ هو الخبر اليقين. ويختار الطريق الأنسب ليلج عالمهم المشوب بمغريات المادة، وعلى ظهر المستوى التركيبي أي بالتوكيد(أمر كلّه) تنكشف العلاقة بين حب المال واليهودي، وهذا الأمر هو سرّ تأبّد هذه القيمة في الفكر اليهودي، ويصل إلى نتيجة منطقية يتضح فيها لا تواصله مع هذه الطائفة. ومنطلقه انبتار التواصل بين عقيدة صحيحة رسخت في نفسه وعقيدة ظاهرها عبادة وباطنها

[1] - عبد الوهاب محمد الميسري. الأيديولوجية الصهيونية. مجلة عالم المعرفة، عدد 60. الكويت، يناير 1982م. ص 31.

[2] - التفسير التطبيقي للكتاب المقدس. سفر التكوين 17. ص46.

[3] - المرجع السابق. ص 202.

[4] - اللزوميات: ج2/ ل 435/ ب1-3/ ص5.

ارتزاق، ويُنصب نفسه طرفا في الذود عن عقيدة الإسلام التي يتماهى فيها ويراها قوية لا تنطلي عليها مكائدهم.

2.2 الحسّ الاستشرافي

يناهض هذه العقيدة التي تقدس المال، وتوحي هذه الثورة من الشاعر بأخبار عن اليهود كانت تصكّ سمعه، والراجح أنّه إعلان نفير للمسلمين من طائفة تستنزف ثرواتهم بالمكائد. ولولا كتابهم الذي اعتراه من المسخ ما أتلف جوهره لدارت الدائرة عليهم:

وِلِحِبْرِ اليَهُودِ في درسِهِ التَّوْ رَاةِ فَنٌّ والهَمُّ في التَّدْبِيلِ[1]

رَبَّلَتْـهُ أَسْـفَارُهـا وحَمتْهُ طولَ أَسْـفَارِهِ من التربيلِ

حَسَّنَ القَوْلَ يَبْتَغِي نَضْرَةَ العَيْ شِ بِغِشِّ الإِدْواءِ والتدبيلِ

يحيل إلى البنية المعنوية مستغلا عنصر الزمن والمفارقات ليقابل بين زمنين مرّا عليهم، مرحلة ما قبل نزول الكتب على أنبيائهم وتمثلها أيام التربيل (الرعي والفاقة) وزمن نضرة العيش بعد أن وجهوا كتبهم إلى ما يقوى الثروة والسلطان، ويصل إلى أنّ المال يقف خلف تقديسهم التوراة المحرفة. فهي التي أكسبتهم الثروة وصانتهم من ذلّ العوز.

لأبي العلاء حس استشرافي قوي، ولا ينفصل فن الأديب عن المرحلة التاريخية التي نشأ فيها، فزمنه جحيمي[2]، وقد يكون على بيّنة من ضلوع اليهود في مأساة المسلمين وتهالكهم على ثرواتهم، ولا يستبعد خوفه من مقبلات الأيام حيث يتحصن هؤلاء بالثروة وتضعف شوكة المسلمين أكثر، لأنّ عزلته في معرة النعمان «لم تعزل وجدانه، ولم تسدل الغطاء على بصيرته،بل لعلها أعانته على أن ينصرف إلى تأملاته ويجد نفسه»[3].

خلاصة البحث:

ويمكن أن نخلص من خلال هذه الدراسة الموضوعاتية التي تفادت عبث الهوى بقراءة فنّ أبي العلاء المعري إلى أنّ الأدب ليس مجرد وعاء للمشاعر وإلا حكمنا على فنّ المعري بالفناء مادام بؤرة للأحاسيس الفردية المعزولة عن الذات الجمعية. لا يمكن ولوج عالم المعري الرؤوي إلا بالإحاطة برصيده الفلسفي، والديني، وطبيعة تصوراته التي كثيرا ما أوهمت النقاد بقراءات لفنه بعيدة عن جوهر تأملاته. توحّد في الطور الثاني من حياته

[1] --المصدر نفسه: ج3 / ل 980/ ب 14،13، 15/ ص 46.

[2] - للاستزادة ينظر:عائشة عبد الرحمن. الغفران، ط4، . دار المعارف المصرية، القاهرة 1999 م. ص49-72.

[3] - المرجع نفسه. ص 17.

ISSN : 2353-046
EISSN : 2600-6421

ولكن بصيرته ظلّت تبسط سلطانها على العالم الخارجي ولم ينبتر عن هموم الأمة بل ظلّ يرقب أحوالها ويتفاعل معها وأقوى حجة تقدم نفسها ولا يقدمها الباحث هوسه من المسألة اليهودية حيث بسط تفاصيل امتعاضه من اليهود دون مواربة وهو الرجل الضعيف الضرير. وكأنّ المعري يهزّ الفكر العربي الذي ألف وضع الأدب في خانة الأحاسيس وسجّل قصوره في تحريك الفن في اتجاه الدراسات الاجتماعية ودرء الانكماش الحضاري.